قراءة في خصائص تجار مدينة الجزائر سنة 1830

أنموذج :"حمدان خوجة وأحمد بوضربة"

د. سلطانة عابد ،
مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية
جامعة معسكر

مقدمة

غداة احتلال فرنسا للجزائر في جويلية 1830 ، برزت فئة التجار على مسرح الأحداث بروزا ملفتا ، حيث لعبت أدوارا رئيسية وهامة بين سلطة الأيالة و سلطة الإحتلال.

إن مساهمتنا نسعى من خلالها إلى فهم الميكانيزمات و الآليات التي جعلت من تجار مدينة الجزائر يتصدرون باقي الفئات الإجتماعية لمدينة الجزائر في الدفاع عن المدينة وسكانها ومقدساتها .

ولأجل فهم هذه الميكانيزمات والآليات سنسعى إلى مقاربة فئة التجار بمدينة الجزائر من خلال خصائصهم الإجتماعية والإقتصادية والثقافية والسياسية التي سمحت لتاجرين هامين من تجار هذه المدينة، هما حمدان بن عثمان خوجة وأحمد بوضربة من لعب الأدوار الأولى على المستوى السياسي والنضالي في مواجهة سلطة الإحتلال بقيادة الجينرال دوبورمون Debourmont .

إن إختيارنا لحمدان خوجة وأحمد بوضربة كعينة لفئة التجار بمدينة الجزائر هو إختيار أملته ضرورة منهجية وموضوعية، وذلك من حيث أنهما الوحيدان

في حدود علمنا المتواضع، اللذان تركا كتابات نوعية تعرضا فيها لأوضاعهم ودورهم أمام صدمة سقوط دولة الأيالة، وهي الآثار المحفوظة بدور الأرشيف الفرنسي (مراسلاتهم مع ضباط الإحتلال خاصة دوبورمون وكلوزيل Clauzel) ودور الأرشيف التركي (مراسلات حمدان خوجة مع السلطان العثماني وموظفي الأستانة).

I- الخصائص الإجتماعية :

إن الهدف من التعرض إلى مقاربة الخصائص الإجتماعية هو ملامسة الوضع الإجتماعي والإثني لهذين التاجرين، وإلى أي حد سمحت الخصوصية الإجتماعية والأثنية ببروزهما كفاعلين إجتماعيين وسياسيين في جزائر 1830، متسائلين عن فاعلية الإنتماء العرقي والإثني في الدفع بهما كفاعلين في تسيير الأحداث بدءا من مفاوضات الداي حسين ودوبورمون Debourmont وصولا إلى توقيع معاهدة الإستسلام وتشكيل أول جبهة جزائرية لمقاومة الإحتلال، هي **لجنة المغاربة** التي ترأسها حمدان خوجة إلى جانب أحمد بوضربة وابن عمر، وإسماعيل ابن مصطفى وحمدان آغة ، وهي اللجنة التي راحت تكشف الممارسات التعسفية واللإنسانية للجيش الفرنسي بالجزائر، والتي كانت تتنافى مع إلتزمات الطرف الفرنسي الموقعة بموجب معاهدة الإستسلام مع الداي حسين. (عبد الرحمن،ج.1995 : 7).

1- الخصائص الإجتماعية والإثنية لحمدان بن عثمان خوجة:

- أصوله ترجع إلى تركيا
- كان أبوه يشغل وظيفة دفتر دار بدار الإدارة التركية.
- أمه تنتمي لعائلة أمين السكة، أخت الحاج محمد أمين السكة.

- كان متزوجا من الزهرة بنت الحاج عبد الرحمن بوركايب وهو من كبار تجار مدينة الجزائر.
- كان متزوجا أيضا من لالا خدوجة بنت إبراهيم باي من كبار موظفي الأيالة.
- كانت تربطه علاقة مصاهرة بباي قسنطينة الحاج أحمد والذي كان زوجا لأخته خدوجة (عبد الرحمن ج.1995: 7).

2- الخصائص الإجتماعية والإثنية لأحمد بوضربة:

- أصوله ترجع إلى عرب الأندلس
- كان والده من كبار تجار مدينة الجزائر
- كان لعائلة بوضربة علاقات مصاهرة بعائلة الصايغي، وهو من كبار موظفي الإيالة.
- كما كانت له علاقة مصاهرة بخوجة الخيل (George.Y.1913 :218)

من خلال القراءة الأولية لهذه الخصائص الإجتماعية والإثنية نستخلص أن التاجرين ينتميان إجتماعيا إلى الفئة الحضرية الأرستقراطية، فحمدان خوجة ينتمى إلى الفئة التركية وأحمد بوضربة إلى الفئة الأندلسية، وهذا ما يفسر في رأينا المتواضع توجههما نحو التجارة الدولية (الإستيراد والتصدير)، حيث يبرز ثقل علاقات المصاهرة القوية مع كبار موظفي الإيالة، مما يحيلنا إلى اقتراح فرضية أن ممارسة النشاط التجاري الخارجي لم يكن نشاطا تجاريا مفتوحا أمام جميع التجار، بل كان نشاط يتحكم فيه الوضع الإجتماعي (الأصول الإثنية، علاقات المصاهرة) ودرجة التلاحم (القرابة) بالسلطة السياسية والإدارية،

وعليه فإن وضع التاجر كان في الواقع إنعكاسا لوضع إجتماعي مميز، وضع يتداخل فيه الرهان الإثني والسياسي، وحتى الديني والثقافي؛ وهو ما فسرته الباحثة لواليش فتيحة على أساس أن شح الموارد البحرية خاصة القرصنة مع بداية القرن الثامن عشر، دفع بالعديد من موظفي الإيالة ورياس البحر بالتحول إلى ممارسة النشاط التجاري وذلك يربط علاقات مصاهرة مع كبار التجار ومشاركتهم نشاطهم التجاري (لواليش،ف.1993: 116) مما يمكن اعتباره تحالفا مصالح بين البورجوازية التجارية الحضرية والبيروقراطية السياسية والإدارية بمدينة الجزائر.

II- الخصائص الاقتصادية:

ونقصد بهذه الخصائص، الوضع المادي لكل من حمدان خوجة و أحمد بوضربة، و ذلك من خلال التعرض إلى نوعية النشاط التجاري الممارس و حجم الممتلكات ونوعيتها.

1- حمدان خوجة:

1- 1 نوعية النشاط التجاري:

- حجم التجارة الخارجية قدرت بـ 300.000 فرنك فرنسي
- كان يستورد :السكر، الشاي، الكتان، الورق، الآزوت، البوتاس، نشير إلى أن حمدان كان يمارس هذا النشاط بالإشتراك مع خاله أمين السكة وبعض التجار اليهود(Temimi,A.1980 :21-22)

1- 2 نوعية النشاط الزراعي:

كان يملك بسهول متيجة:

- 10.000 رأس من الغنم والماعز
- 600 بقرة حلوب
- 200 زوج من الثيران
- 60 حمل
- 200 من الخيول
- 60من البغال
- 600 جبح من العسل
- 5000 إلى 6000 كيال (الكيلة=25كلغ) من الحبوب في المطامير (مفردها مطمورة عرفت الجزائر منذ أقدم العصور هذا النوع من المطامير لتخزين الحبوب خاصة القمح الصلب والشعير)

يذهب حمدان بن عثمان خوجة في كتابه "المرآة" متحدثا عن ثروته قائلا:"... علي أن أصرح بملكيتي لقطعة كبيرة من الأرض كافية من هذا السهل، توارثاها أبا عن جد" ، ليواصل:"فانا ملاك لأملاك بسهل متيجة يقدرما أبذره بهذا السهل سنويا 160 حمولة إبل من قمح وما بين 100 و120 حمولة من الشعير..." (عبد الرحمن،1995 :33) أما عن ممتلكاته العقارية، فكانت متعددة، كمحلاته التجارية بوسط مدينة الجزائر والتي صادرتها قوات الإحتلال الفرنسي، كما صودر "قصره القائم بأعالي الربوة بربض العين الزرقاء..."(عبد الرحمن،ج 1995 :35).

2- أحمد بوضربة :

2- 1 نوعية النشاط التجاري:

- تخصصت عائلة بوضربة في استيراد: الزيت، القهوة، الخشب، الكتان، السك الفولاذي، الزجاج، ملح الأمونياك.

كان أحمد بوضربة يمارس هذا النشاط بالإشتراك مع عائلة الصايغي، وبوركايب و بعض التجار اليهود (A.M.G,Alg. 1831)

2-2الأملاك العقارية :

- خمسة محلات تجارية بمدينة الجزائر
- 4 قصور بمدينة الجزائر
- عقارات فلاحية بسهل متيجة

ومما يلاحظ أن أحمد بوضربة كان تاجرا، ولم يكن يشتغل في النشاط الزراعي، عكس حمدان خوجة، فبوضربة كان يستثمر فوائده من التجارة في شراء العقار بمدينة الجزائر(A.MG.Alg.1831).

III- الخصائص الثقافية والسياسية :

تعتبر الخصائص الثقافية والعلمية والسياسية لكن من حمدان خوجة وأحمد بوضربة كأهم خصائص جذبت واسترعت انتباهنا ، فنحن أمام تاجرين برزا على مسرح الأحداث في مدينة الجزائر بمستوى ثقافي وسياسي جد مميز.

1- حمدان خوجة: و الذي يصفه المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي بقوله:" أنه بليغ القلم واللسان نظما ونثرا، واسع الإطلاع، سديد الرأي، نافد البصيرة ذا رجاحة في العقل والتدين والتقوى خبيرا بسياسة الدول والملوك ، ملما ببعض اللغات الأجنبية ، فكان يحسن إلى جانب لغة أبويه العربية والتركية واللغة الفرنسية والإنكليزية ، وكان جماعة للكتب.

وكثيرا ما كان يقضي الأيام والليالي الطويلة في نسخ الكتب النادرة المفيدة بيده وتارة يعلق عليها بقلمه، وقد وقفت على بعضها بخطه الجميل"(عبد الرحمن،ج.1995: 33).

لم يقتصر النشاط الثقافي لحمدان خوجة على جمع الكتب، وإتقان اللغات فقط بل نجده يؤلف العديد من الكتب، في السياسة والتاريخ، والفلسفة وحتى الطب، نذكر منها مؤلفه الشهير كتاب "المرآة" 1833 والذي تعرض فيه إلى ذكر أحوال الجزائر غداة الإحتلال الفرنسي سنة 1830، فكان هذا الكتاب هو "أول بيان سياسي ضد السياسة الفرنسية بولاية الجزائر" على حد تعبير الشيخ عبد الرحمن الجيلالي (عبد الرحمن،ج.1995: 40).

إضافة إلى "المرآة" ألف حمدان بن عثمان خوجة كذلك: كتاب" إتحاف المنصفين والأدباء بمباحث الإحتراز من الوباء" و هو كتاب كتبه باللغة العربية واللغة التركية سنة 1838" وحققه ونشره البحاثة محمد بن عبد الكريم سنة 1968، وموضوعه يدور حول "الحجر الصحي"، حيث أفتى حمدان خوجة بضرورة الحجر خلافا لما ذهبت إليه مشيخه الإسلام، التي كانت ترى فيه تقليدا للكفار، وكانت الكلمة الأخيرة لحمدان خوجة بعد مناظرة شهيرة مع علماء اسطنبول، مما دفعه لتأليف هذا الكتاب(عبد الرحمن،ج.1995 :37- 38)

كما ألف حمدان خوجة رسالة فلسفية، شرح فيها كلمة الغزالي الشهيرة "ليس في المكان أبدع مما كان " أسماها "حكمة العارف" والتي ألفها سنة 1836(عبد الرحمن،ج.1995 :39).

فنحن إذن أمام تاجر مثقف وعالم، وهي خاصية جعلت الكثير من الضباط الفرنسيين يعتبرونه المثقف المستنير الوحيد بإيالة الجزائر، والذي يتسم بسعة علمه، وتنوع لغاته، مما يؤهله للعب أدوار مهمة في

التوسط بين إدارة الإحتلال وسكان مدينة الجزائر (Temimi,A.1980 :21)

وهذا ما يفسر ذلك الدور السياسي الهام الذي لعبه حمدان خوجة غداة الإحتلال، فكان أبرز شخصية لعبت دورا تفاوضيا هاما بين الجنرال دوبورمون والداي حسين، قبل توقيع معاهدة الإستسلام ، حيث كان الداي حسين يستشيره في كل تفاصيل معاهدة الاستسلام خاصة ما تعلق بالبنود الخاصة بالإسلام والمساجد والأملاك الوقفية.

كما إستعانت به السلطة الفرنسية في إتصالها بباي قسنطينة الحاج أحمد باي ليعقد بينهما معاهدة سلم(أوت –أكتوبر 1832) على عهد الجنرال دوريفيقوDe Rovigo ، وأوكلت له الإدارة الإستعمارية مهمة التفاوض مع باي التيطري بومرزاق (عبد الرحمن،ج.1995 :37-34)، وكان أول من ترأس المجلس البلدي لمدينة الجزائر رفقة أحمد بوضربة ولجنة المغاربة رفقة ابن عمر وإسماعيل.

2- أحمد بوضربة :

تذكر جل الكتابات والمصادر أنه كان من الملمين باللغة الفرنسية بحكم إقامته بفرنسا مدة تسع سنوات أين تزوج بامرأة فرنسية، وبحكم تعاملاته التجارية الواسعة مع ميناء مرسيليا، فقد كان أحمد بوضربة من بين أبرز شخصيات لجنة المغاربة التي أوفدت في أواخر 1830 إلى باريس لشرح قضية الاحتلال و تجاوزاته أمام الحكومة الفرنسية.

وقد لا نعرف لأحمد بوضربة كتابات أخرى أو تأليف سوى مذكرته المشهورة الموسومة"مذكرة بوضربة" وهي عبارة عن نصائح وإرشادات

إلى الفرنسيين عن طريقة التعامل مع الجزائر بين وكيفية التنظيم الإداري والسياسي لحكم الجزائريين. (George.Y.1913 :219)

وفي ختام هذه المقاربة، وبعد استعراضنا لأهم خصائص تجار مدينة الجزائر (حمدان بن عثمان خوجة وأحمد بوضربة) ، يمكن لنا أن نصيغ الفرضيات الإستشرافية التالية علها تكون أو تشكل سبلا لأبحاث قادمة.

1. دور الوسط العائلي والإنتماء الإثني في ممارسة النشاط التجاري الخارجي، فالإنتماء إلى الفئة التركية كان عاملا حاسما في ممارسة هذا النشاط التجاري.
2. علاقات المصاهرة بين التجار وموظفي الإيالة يؤشر إلى أن النشاط التجاري الخارجي لم يكن يتم دون إشراك البيروقراطية السياسية.
3. طبيعة التجارة الخارجية (نوعية المواد المستورة) يعكس أن هذا النوع من النشاط التجاري كان بإشراف ومراقبة السلطة السياسية.
4. الدور السياسي للتجار خاصة موقفهم من الاحتلال يقرء في بعده الإثني والإجتماعي، فحينما يعتبر حمدان خوجة الاحتلال مؤقت وسوف تعود الجزائر إلى السلطة السابقة ، نجد أحمد بوضربة يرحب بالوجود الفرنسي بالجزائر ويسعى للتقريب بين الفرنسيين والجزائريين ، وما يؤكد هذه الفرضية اتهام حمدان خوجة لبوضربة بأنه هو من كان وراء قرار سلطة الإحتلال القاضي بنفي أتراك مدينة الجزائر، إضافة إلى اتهام بوضربة بدوره في دعم الأمير عبد القادر على حساب الحاج أحمد باي، بينما نجد حمدان خوجة يميل و يؤيد الحاج أحمد باي على حساب الأمير عبد القادر. (Temimi, A.1980 :85)

بيبلوغرافيا :

1 - الأرشيف:

- Archive du ministère de la guerre- Vincennes Alger 1831 Générales série 1H Correspondances

2 - المراجع باللغة العربية:

الجيلالي ، عبد الرحمان (1995)، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر .

3 - المراجع باللغة الأجنبية:

-TEMIMI Abdeljalil(1980) , Recherches et documents d'histoire maghrébine , Tunis .

-4 المقالات :

- Yver, George (1913) , Mémoire de Bouderbah, in Revue Africaine, pp 218-245.

5 - الأطروحات:

لواليش فتيحة، (1993)، الحياة الحضرية ببايلك الغرب، رسالة ماجيستر في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر.